

شعرية التفاعل النصي بين الشعر والرواية الجزائرية المعاصرة رواية "الخلاص" لعبد المالك مرتاض-أنموذجاً-

The poetics of the textual interaction between poetry and the
contemporary Algerian novel the novel "El- khalas " by abdelmalek
Mortad -as a model-

دراجي منار¹ ، جامعة محمد لمين دباغين-سطيف2، الجزائر، ma.derradji@univ-setif2.dz

مخبر مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب ،جامعة سطيف2

زهيرة بارش²، جامعة محمد لمين دباغين-سطيف2، الجزائر، z.bareche@univ-setif2.dz

تاريخ إرسال المقال: 10-08-2023 تاريخ قبول المقال: 31-08-2023

الملخص:

تعد الرواية من أكثر الأنواع الأدبية انفتاحا واستلهاما للأدوات التعبيرية المختلفة، إذ استطاعت نسج بنية وتقنيات سردية مواكبة لمتطلبات المجتمع والعصر، فهي حقل واسع لظاهرة التفاعل النصي حيث تجعل النص الروائي يخرج من إطاره الضيق إلى إطار أوسع تتداخل فيه مختلف الفنون لاسيما الشعر، وقد اشتغل على هذه التقنيات المعاصرة ثلة من الروائيين أبرزهم عبد المالك مرتاض، إذ تعتبر روايته "الخلاص" نموذجا لهذا التفاعل الحاصل مع الشعر، التي راحت تلبس لبوسه، حيث اغترف منه كممارسة إبداعية وتوظيفه في متونها السردية، ليصبح جزءا من نسيجه السردية، ليمنحها فعالية خلق شعرية النص الروائي، وهو ما تسعى هذه الورقة البحثية الكشف عنه.

الكلمات المفتاحية: الشعرية، التفاعل النصي، الشعر، الرواية الجزائرية المعاصرة، عبد المالك مرتاض.

Abstract: The novel is one of the most open literary types and inspired by the various tools of expression, because it has been able to weave a structure and narrative techniques that meet the demands of society and of the time. It is a vast field for the phenomenon of textual interaction, because it makes the text of fiction emerge from its narrow framework to a broader framework in which the various arts, in particular poetry, are imbricated. A group of novelists worked on these contemporary techniques, especially Abdelmalek Mortad, because his novel "el-khalas" is considered a model for this interaction that takes place with poetry, which began to bear its characteristics because it has been extracted as a creative practice and employed in his narrative texts in order to become part of his narrative fabric to give him the effectiveness of creating the poetry of the narrative text, this memoir seeks to reveal.

Key words : Poetics , textual interaction , poetry ,the contemporary Algerian novel, abdelmalek mortad.

مقدمة:

تنبؤ الرواية مكانة بارزة من بين الأجناس الأدبية الحديثة، بل ونص متفرد لإمكانية استيعابه شتى الفنون التي تنصهر جميعا في بوتقة النص الروائي، إذ تعد فضاء رحبا يستوعب ويتفاعل مع كل ما يتصل بحياة الإنسان، فهي بطبيعتها تسعى لتصوير الحياة بكل متغيراتها إذ كل ما فيها يأبى الثبات، يصبو دائما إلى البحث عن كل ماهو جديد، فيتفاعل مع كل التقنيات السردية والأنماط التعبيرية وأنواع الفنون المختلفة.

وبما أن الرواية نص قابل للتجديد والتطوير المستمرين، فقد جعلت الروائيين يتنافسون في حقل إبداعه مواكبة للعصر، وينوعون في أساليب كتاباتهم سعيا لتحقيق مستوى من الكتابة يتناسب مع قيمة هذا النص الذي يتميز بالمرونة والانفتاح على مختلف الأشكال التعبيرية المستعارة من الفنون الأدبية . فالرواية إذن، تمثل عالما لحدود له من الإنتاجية والإبداع ما جعل معظم الروائيين يلجؤون إلى ابتكار تقنيات وطرائق جديدة بالاعتماد على أشكال مستعارة من الفنون الأدبية المختلفة، والتي يعبر عنها بمصطلح التفاعل النصي الذي ينهض على استدعاء الفنون الأدبية وتوظيفها داخل النص الروائي وفق استراتيجية محكمة ترسم إطارا واضحا للتداخل والتفاعل بين الفنون الأدبية المختلفة في البنية النصية الواحدة، مما أنتج عدد لا بأس به من الروايات التي يتحقق على مستوى بنيتها مفهوم التفاعل النصي. انطلاقا مما سبق، أصبحت الرواية وأخص بالذكر هنا الرواية الجزائرية المعاصرة على وجه الخصوص، مجالا خصبا لاحتضان الفنون الأدبية، إذ نجد معظم الروائيين المعاصرين قد اغترفوا منها بخاصة من فن الشعر، حيث استثمروه في كتاباتهم وإبداعاتهم الروائية.

وما يلفت النظر في الحقبة الأخيرة، أن للرواية الجزائرية المعاصرة منجزات روائية غلب عليها الشعر، ولعل أبرز هذه الروايات رواية " الخلاص " لعبد المالك مرتاض، التي نجد أنها تقف على حدود التفاعل مع الشعر الذي يحضر بشكل ملفت للنظر في بوتقة نسيجه السردية، وهذا ما سنقف عليه من خلال تباين هذا المتفاعل النصي والمتمثل في الشعر الذي حفلت به هاته الرواية، فقد استدعاه الروائي عبد المالك مرتاض وحاول توظيفه في بنية نصه الروائي، وذلك لإضفاء شعرية تضاهي أو تفوق شعرية السرد لخلق قيمة فنية للعمل السردية واكسابها طابع فني متميز بخاصة وأن الشعر وسيلة تعبيرية لوصف التجربة وتصوير المواقف الانفعالية التي يعجز عنها النثر أحيانا ، وهذا ما سنحاول إثباته من خلال الإجابة عن مختلف الأسئلة التي تطرحها هذه الورقة البحثية: مامفهوم كل من التفاعل النصي والرواية؟،

ومامدى نجاح وقدرة الروائي عبد المالك مرتاض في هذا العمل السردى على توظيف فن الشعر وصهره في جسد الرواية ؟ وما مدى اسهامه في خلق شعريتها؟ و ما لدافع لاستضافة الروائي لفن الشعر في روايته؟ ومن أجل إنجاز هذه الورقة البحثية والإجابة عن مختلف التساؤلات المطروحة بطريقة علمية ومنهجية سنستخدم المنهج الوصفى التحليلي الذي يساعدنا في تحليل الرواية والكشف عن مواطن التفاعل النصي بين الرواية والشعر .

المبحث الأول: في مفهوم الشعرية، التفاعل النصي ،الرواية (عتبات مفاهيمية واصطلاحية)

تعد المصطلحات مفاتيح العلوم، لذلك كان لزاما في أي عمل مصطلحي القيام بتعريفه وتخصيصه، وهذا ما سنحاول التعرض إليه في المطالب آتية الذكر .

المطلب الأول: في مفهوم الشعرية

يعد مصطلح الشعرية من المصطلحات التي عرفت جدلا واسعا على مستوى المفهوم وذلك بسبب اشتباك معانيها وتنوع تعريفاتها، إذ تعد من المرتكزات النقدية الحديثة التي تسعى إلى كشف مكونات النص الأدبي فهي "محاولة وضع نظرية عامة ومجردة ومحايثة للأدب بوصفه فنا لفظيا، إنما تستنبط القوانين التي يتوجه الخطاب اللغوي بموجبها وجهة أدبية، فهي إذن، تشخص قوانين الأدبية في أي خطاب لغوي، وبغض النظر عن اختلاف اللغات".¹

وأول من استخدم مصطلح "الشعرية" أرسطو في كتابه (فن الشعر)، حين استقصى الخصائص الفنية للأجناس الأدبية التي شكلت حضورا متميزا في عصره" وتعود أصول تواجد هذا المفهوم إلى كتاب فن الشعر لأرسطو الذي اعتمد نظرية المحاكاة كأساس نظري لشعريته ، وهو أول من استخدم هذا الاصطلاح ، وقد ركز اهتمامه على جانبين في العمل الأدبي هما الشكل والمضمون² فالمتأمل في مفهوم الشعرية عند أرسطو يجد أنها تقتزن بالمحاكاة ، والمحاكاة عنده تعنى بأدبية الأدب وشعريته .

كما أن الشعرية كانت محل خلاف لدى النقاد العرب القدامى ، فمنهم من ضيقها في الشعر وحده كونه الإبداع الأدبي المرموق و السائد في تلك الحقبة، فالشعرية العربية القديمة كانت تعنى بالشعر دون غيره من أنماط الخطاب الأدبي.

غير أن الشعرية الحديثة تختلف عن الشعرية القديمة وذلك من حيث اتساع مفهوم مصطلح الشعرية ومن حيث ارتباطها بشعرية الغرب ، فالشعرية الحديثة وسعت مجال دراستها لتشمل أنواع

الخطاب الأدبي " فالشعرية تتعلق بدراسة خصائص الأعمال الأدبية ولم تقتصر الاهتمام على الشعر وحده، وإنما تعدى هذا الاهتمام إلى الفنون الأدبية الأخرى"³.

ونخلص من هذه التعاريف المبسطة للشعرية، أنها تهدف لتحليل الأعمال الإبداعية بغض النظر عن جنسها أو نوعها باعتبارها مجموعة العناصر والتقنيات والوسائل التي تشكل العمل الأدبي، وتصنع فرادته وتميزه وتدخله ضمن الأدب .

المطلب الثاني: في مفهوم التفاعل النصي

إن التفاعل النصي يجسد العلاقة بين نصين متكاملين أولهما سابق والثاني لاحق، وبالنظر فيما نبحت عنه يتضح أن النص السابق هو ما يمثل فن الشعر، وأما النص اللاحق فهو الرواية "فالتفاعل النصي مركب وصفي تجتمع لمتلقي هذا المصطلح دلالة منشطرة إلى دالتين فهو في جزئه الثاني نص وفي جزئه الأول ممارسة (تفاعل) فيكون الجزء الثاني هو حقل أو موضوع هذه الممارسة"⁴.

فالتفاعل النصي كما سبق وأشارت هو تعالق واستحضار لمجموعة من النصوص يتلاقى السابق فيها باللاحق مايسهم في شعرية النص الروائي ذلك أن التفاعل النصي يستمد " قيمته النظرية وفعاليتها الإجرائية من كونه يقف راهنا في مجال الشعرية الحديثة"⁵.

وقد اختلفت تعريفات التفاعل النصي " نظرا لاستعمال المفاهيم الموازية له من طرف النقاد الغربيين حيث اعتبرته جوليا كريستيفا مقابلا لمصطلح التناص والذي يعني حسب تصورهما "ترحال النصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نصي معين تتقاطع وتتنافس ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى"⁶. كما يسمي جيرار جينيت المصطلح نفسه بالتعالوي النصي، وينظر إليه على أنه "معرفة كل ما يجعل النص في علاقة خفية أو معلنة مع غيره من النصوص"⁷.

والنقاد العرب هم كذلك قد اختلفوا في نقله إلى العربية رغم اتفاقهم في مدلوله حيث ترجم سعيد يقطين مصطلح " transtextualité " بالتفاعل النصي، كون هذه التسمية تعكس بوضوح تلك العلاقات التفاعلية التي تحدث بين النصوص الأدبية فالتفاعل النصي عند سعيد يقطين إذن " هو ظاهرة نصية ثابتة تجعلنا نسعى إلى تفكيك النص بهدف معاينة علاقته بغيره من النصوص التي حاول تمثلها واستيعابها وتحويلها في بنية النصية، لتصبح جزءا أساسيا في بنيته وبنائه"⁸.

فالكتابة الأدبية إذن إبداع مستمر لا تنتج من العدم بل تنطلق دائما من إبداعات سابقة أو معاصرة لها، وهذا ما أشارت إليه نهلة فيصل الأحمر في تعريفها للتفاعل النصي أنه " تلك الممارسات التي يقوم بها نص مع النصوص أخرى قديمة وآتية تتحدد عمليا بعلاقة هذا النص مع غيره من النصوص التي تتجه إليه شارحة ويتجه إليها واصفا"⁹.

وتتحدد شعرية هذا التفاعل بتلك العلاقة التي تربط النص بغيره، وهذه العلاقة تتحدد جلياً في علاقة وتفاعل الرواية مع فن الشعر.

المطلب الثالث: في مفهوم الرواية

تعد الرواية من أكثر الفنون الأدبية سرعة في التطور وأوسعها في احتواء شتى الأشكال التعبيرية المستمدة من الفنون الأدبية المختلفة، و أشدها مرونة في تنوع قوالبها الفنية، وإن كانت الرواية تتطور بشكل مستمر، فقد تعددت المفاهيم والتعريفات لها إذ "تتخذ الرواية لنفسها ألف وجه، وترتدي في هيئتها ألف رداء، وتتشكل أمام القارئ تحت ألف شكل، مما يعسر تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً"¹⁰ ورغم صعوبة تقديم تعريف واحد دقيق لمصطلح الرواية إلا أن جهود الدارسين لم تتوانى عن محاولة تدقيقه إذ نجد عبد المالك مرتاض يعرفها بأنها "عالم شديد التعقيد متناهي التركيب، متداخل الأصول، إنها جنس سردي منشور"¹¹.

انطلاقاً من هذا الرأي يمكن الإقرار بصعوبة وضع تعريف جامع للرواية، إلا أن من التعاريف المتفق عليها أنها "فن نثري تخيلي طويل نسبياً، بالقياس إلى فن القصة"¹² فالرواية هي جنس أدبي لا يخضع في كثير من الأحيان للقواعد والقوانين ولا للتقاليد الكتابة الأدبية، ولعل هذا ما يبرر مرونة الرواية كونها فضاء واسع ومجال خصب يضم مختلف الفنون الأدبية على اعتبار أنها "فن راق مركب يستقطب ويقحم ويتمثل عدد غير قليل من الخطابات المترابطة بدورها والملفوظات المحفوظة بذكرى سياقاتها"¹³ ومن نافلة القول أن الرواية جنس أدبي مستحدث متعدد التعاريف كونها نص مرن وشاسع، إذ له القدرة على احتواء مختلف الفنون الأدبية والتفاعل معها.

المبحث الثاني: شعرية الرواية وتفاعلها مع النص الشعري

تتولد شعرية النص الروائي من تفاعلاته مع مختلف الخطابات الأخرى، وهذا التفاعل يقود إلى القبض على شعرية النص الروائي المنفتح على مختلف الخطابات المتاخمة له، ولعل من بين هذه الخطابات "النص الشعري"، وهذا ما سنتعرض إليه في المطالب الآتية وذلك من خلال تبيان كيف أسهم النص الشعري في شعرية الرواية كيف تفاعلت معه.

المطلب الأول: شعرية الرواية

يرى ميخائيل باختين أن "الرواية هي النوع الأدبي الوحيد الذي لا يزال طور التكوين، والنوع الوحيد الذي لم يكتمل بعد، بعكس الأنواع الأدبية الأخرى"¹⁴، ذلك أن الرواية في تطور مستمر ما يجعلها مجالاً

خصبا للخلق والإبداع والشعرية، حيث استطاعت الرواية الحديثة " أن تقترب اقترابا كبيرا من فضاء النص الشعري، وما يمثله من اهتمام باللغة وعناية بها، وعكوف عليها، وتكثيف لقدراتها التعبيرية، حتى أصبحت الرواية قصيدة القصائد، وملتقى الانواع الأدبية وامتزاجها جميعا في نص واحد"¹⁵ لتتحول مع التطور الحاصل إلى " نصا محبوبا، نضاحا بالشعر و تشظيات السيرة، والحلم والخرافة، والواقع والأسطورة، كل ذلك في مزيج باهر يفيد من تراكم التقنيات الروائية... والمناهج المستعارة من القصيدة"¹⁶

إذ نجد نبيل سليمان يقدم لنا أهم ملامح الشعرية في الرواية الحديثة منها "كسر الترتيب السردى ، وفك العقدة التقليدية، وتحطيم الزمن المستقيم، وتهديد بنية اللغة المكرسة ، وتوسيع دلالة الواقع ليعود إليها، الحلم والأسطورة والشعر، واستخدام صيغة الأنا لتعرية الذات ... على أن رهان الشعرية الحاسم يكون في اللغة"¹⁷

وفي السياق نفسه نجد محمد بوعزة يحاول الإجابة عن سؤال متى تكون الرواية شعرية، فيقول " تكون شعرية من حيث هي تشكيل لغوي يعبر بالسرد عن عوالم تخيلية معقدة، ولا يتوقف الإشكال عند حدود استعارة الرواية لتقنيات الشعر، بل يتجاوز هذا التصور الاختزالي إلى التساؤل عن كيفية اشتغال الخطاب الشعري في النص الروائي، وكيف تشتغل هذه التقنيات حيث ترحل من بلاغة الشعر إلى بلاغة الرواية"¹⁸.

فالرواية باستضافتها لفن الشعر استطاعت أن تتخلص من رتابة السرد، حيث تجاوزت ذلك إلى الرؤى المتقدمة والرقي الفني شكلا ومضمونا.

كما أن قدرة الرواية على خلق علاقات بين مكوناتها، والاعتماد في صيغها السردية على مكونات الخطاب الشعري، منح الرواية انزياحا فنيا أدى لتكثيف دلالتها .

المطلب الثاني : فاعلية فن الشعر في النص الروائي وتفاعله معه

تعد الرواية جنس أدبي مفتوح على مختلف الفنون الأدبية، إذ تمارس الخروج عن المألوف وغير خاضعة في كثير من الأحيان لتقاليد الكتابة الأدبية، وبالتالي نسج بنية جديدة من حيث الشكل والأسلوب ومختلف التقنيات الكتابية الجديدة التي تسمح للروائي بتجسيد رؤية حدثية" إذ لا توجد هناك قواعد مكرسة يتعين على الروائي الالتزام بها قبلها، اللهم إلا الشرط الجمالي الذي يمنح لعمله الشعرية أو يحرمه منه"¹⁹ فلا يأتي الإبداع عندما يخضع الروائي لقوانين الكتابة بل ينشق عن قدرته على تجاوز الأطر المألوفة في الكتابة الروائية إذ استطاعت الرواية أن تفرض ذاتها وتجدد قوانينها وتبدع تقنيات تتماشى والعصر المعاصر .

فالرواية إذن تمثل عالماً لا حدود له من الإنتاجية والإبداع، فهي نص قابل للتجديد والتطوير المستمرين ماجعل الروائيين يبدعون في ابتكار تقنيات كتابية جديدة مستعارة من الفنون الأدبية المختلفة والتي يعبر عنها بمصطلح التفاعل النصي، الذي ينهض على استدعاء الفنون وتوظيفها داخل النص الروائي، وما يلفت النظر في الحقبة الأخيرة أن للرواية المعاصرة منجزات روائية غلب عليها الشعر، ذلك أن أهم ما يميز الرواية المعاصرة هو "موضوع التداعي الذي يتعلق بالفنون الأدبية وتداخلها، فهي تستدعي فنون سردية كالقصة القصيرة، ومن التراث والمقامة، والحكاية الشعبية، وتستدعي الشعر كونه فناً تصويرياً وتخيالياً"²⁰.

حيث برزت في الروايات المعاصرة ظاهرة تفاعل الرواية مع الشعر وذلك وفق بنية سردية فنية متفاعلة ومتواشجة، وهذا التفاعل والتوظيف لفن الشعر قد يكون "من باب الزينة أو المتعة التي كان يعتمد إليها الكتاب التقليديون، أما الكتاب التقدميون فقد رسموا للشعر دوراً معيناً يؤديه في الهندسة المعمارية العامة للرواية، وقد يكون التوظيف بمثابة حكمة تلخص بعض المواقف بالمعاني الأساسية للرواية"²¹ وهو الأمر الذي تشير إليه وتؤكد الروائية سميحة خريس إذ تقول "أن الرواية وعاء مرعب، غول جائع لكل صنوف الإبداع، أحياناً أرسم داخل النص وأحياناً أعزف بين الكلمات وتتجمع المعارف والتجارب والأحلام كلها لتصوغ الرواية، فلماذا نستبعد الشعر سيد الكلام العربي منذ عرفنا الإبداع؟، يمكن للرواية أن تستعين بكل ضروب المعرفة، وهنا يأتي دور الحرفي الماهر، الصائغ الفنان الذي يعي المقادير اللازمة لجعل عمله عملاً متوازناً عندما يغرقنا الروائي بالشعر دون وعي للقدر الذي تتقدم فيه الحكاية، ويتراجع الشعر؛ فإن الأمر يخرج من بين يديه ولكن لا أجد روائياً حقيقياً قادراً على الاستغناء عن الشعرية...، ولا بد للرواية أن تحبل بالشعر وسواه من الفنون؛ لأنها الكل في واحد"²².

وعليه يمكن القول أن الرواية فضاء شاسع تدور في رحابه توليفة متنسقة من الفنون الأدبية بخاصة فن الشعر، الذي أضحى وجوده في الرواية أمراً طبيعياً ونوعاً من التحصيل الحاصل الذي تقتضيه الطبيعة المركبة لفن الرواية، بوصف الشعر واحداً من مظاهر التعدد ونوعاً من الاستجابة التلقائية لمرونة الجنس الروائي"²³.

فالرواية جنس أدبي يتميز بالمرونة والانفتاح على مختلف الفنون لاسيما فن الشعر "فليس من السهل العثور على جنس تعبيرى واحد لم يسبق له في يوم ما أن ألحقه كاتب أو آخر بالرواية"²⁴. وقد وجدنا عدداً لا بأس به من الروايات الجزائرية المعاصرة تجسد هذا النمط من التفاعل بين الرواية والشعر.

المبحث الثالث: شعرية التفاعل النصي في الرواية الجزائرية المعاصرة رواية "الخلاص" لعبد المالك مرتاض

أصبحت الرواية الجزائرية تبحث باستمرار عما يحقق نوعيتها، ويجسدها كخطاب منفتح ومتجدد من خلال الاعتماد على مختلف التقنيات الكتابية المستحدثة المستمدة من الفنون الأدبية المختلفة، لكن أبرز مظاهر التفاعل بين الرواية وسائر الفنون الأدبية كان مع الشعر، وذلك أنه حضر بشكل ملفت للنظر في ثانيا رواية "الخلاص" لعبد المالك مرتاض، وفي هذا الصدد يقول سعيد يقطين "تدخل في المتفاعلات النصية الأدبية كل البنيات المتصلة بالأدب في جانبه الشفوي أو الكتابي، وسواء كان هذا الأدب سامياً أو منحطاً ويندرج ضمنه وفق هذا التحديد ماهو شعري أو نثري، سواء كان واقعياً أو متخيلاً"²⁵. وبما أن مصطلح التفاعل النصي يهتم بتوصيف العلاقات بين النصوص والفنون الأدبية، فقد تم اعتماده لاستظهار هذا المتفاعل النصي داخل متون النص الروائي الزاخر بمضامين فن الشعر.

المطلب الأول: شعرية العنوان

يمثل العنوان عتبة الدخول إلى النص الروائي، وهو بمثابة البوابة التي بواسطتها نتعرف على النص الروائي، نظراً لما يحمله من دلالات وتأويلات، فهو خير وسيلة يسمط بها الروائي نصه وتبعاً لهذه الأهمية كان لزاماً منا الوقوف عنده قبل اقتحام عوالم الرواية وذلك بما يتوافق مع دراستنا أي من حيث علاقته بالمتفاعل النصي.

وعند قراءة عنوان رواية "الخلاص"، نلتبس فيه شعرية الخلاص من شيء كان قد صار مستحيلاً أن يتحرر منه الفرد، ويقصد به الروائي عبد المالك مرتاض الثورة التحريرية الكبرى (ثورة الخلاص)، والتي قامت بها الجزائر ضد المستعمر الفرنسي، أو الكيان الغريب كما يسميه الروائي عبد المالك مرتاض، حيث ثار الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي عن طريق الثورة لاسترجاع سيادته المستلبة منه. وعليه شكل العنوان في الرواية بؤرة تحول وفعالية إدهاش بشاعريته اللغوية الدالة، ما يجعلنا نبحت عن تفاعل وتوظيف الفن الشعري في هذه الرواية.

المطلب الثاني: توظيف الشعر القديم

لجأ عبد المالك مرتاض إلى توظيف الشعر في بوتقة نسيجه السردية، ماحقق للنص الروائي شعريته وكثافته الترميزية، وبخاصة وأن الشعر وسيلة تعبيرية لوصف التجربة وتصوير المواقف الانفعالية التي يعجز عنها النثر أحياناً، والتي تتمثل في تصوير الواقع الجزائري وما قام به هذا الشعب من بطولات ضد

الاستعمار الفرنسي أو الكيان الغريب كما يسميه الروائي في الرواية والمتمثلة في الثورة التحريرية الكبرى، والتي ثار فيها الشعب الجزائري ضد الاستعمار لاسترجاع سيادتهم المستلبة . ويتمثل حضور الشعر في رواية "الخلاص" لعبد المالك مرتاض، بكثرة الأبيات الشعرية القديمة المنتشرة في ثنايا هذه الرواية، مثل ماورد من بيت شعري للشريف قتادة :

بلادي وإن جارت عليا عزيزة
ولو أنني أعرى بها وأجوع²⁶.

حيث وظف عبد المالك مرتاض هذا البيت الشعري المحمل بدلالات عميقة إذ يحمل معنى العزة والكرامة للوطن، وهذا مايبين الصلة الوثيقة للوطن وصدق الانتماء للأرض والهوية رغم كل الظروف التي لحقت بهم جراء الاحتلال.

وفي ساق آخر من الرواية يصادفنا بيت شعرياً لحارثة بن بدر التميمي:"
خلت الديار فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردني بالسؤدد²⁷.

فهذا البيت من الأبيات المعروفة التي وظفها الروائي عبد المالك مرتاض لغرض مؤداه؛ أنه عندما تخلو الديار أي الوطن من عليّة قومه وعدم تمكنهم من قيادته، فسيسود من ليس بسيد ويتأرّسه ويقوده من ليس أهلاً للرئاسة وهو يشير هنا للاستعمار الفرنسي الذي حاول الاستيلاء على الأرض الوطن وسلب سيادته. وقد أورد الروائي عبد المالك مرتاض بيتاً آخر وهو "لبشار بن برد" على لسان المهرج الطريف وهو يخاطب يعقوب الباريسي إذ يشير في هذا البيت الذي استدعاه ووظفه في نصه الروائي، إلى أن الإنسان المتقلب المتلون الذي لا يدوم على موقفه ولا يثبت على حال، فينبغي فراقه، لكي لا يكون مطية مذلة لهذا المتقلب والمتمثل في المستعمر الفرنسي الذي يدافع عنه يعقوب الباريسي ويجعله حاكماً وطنياً عدلاً :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه²⁸.

ومن استحضارات الروائي للشعر القديم نجده قد أورد بيت شعري "لحجلة بن نضلة الباهلي":

جاء شقيق عارضاً رمحه إن بني عمك فيهم رماح²⁹.

والمعنى الذي يرمي إليه الروائي عبد المالك مرتاض هو أن الاستعمار الفرنسي جاء واضعاً رمحه أي سلاحه مفتخراً به، معتقداً أن هذا الشعب لا يقدر عليه، وأنه لا يملك سلاحاً يقاومه به حتى اندلعت الثورة التحريرية الكبرى، (ثورة الخلاص).

فهذا الاستحضار للنصوص الشعرية يجعل النص الروائي متداخل ومتفاعل مع ما يخلق شعرية وبنية نصية متكاملة .

كما أورد الروائي بيتين للشاعر الفرزدق على لسان أحد الفتية "حماد"، مقاطعا الشيخ الذي كان يحدث الفتية:

هيهات قد سفهت أمية رأيها فاستجهلت حلماها سفهاؤها³⁰.

وفي موضع آخر من الرواية، تتعدد الاستحضارات للشعر القديم على لسان شخصيات الرواية، إذ نجد الأم زينب تستحضر وتستشهد بيتا شعريا لبثينة وهي تخاطب جميل، حيث ورد هذا البيت بصدد حديثها للفتية عن قرار إضرام النار وإندلاع الثورة الكبرى والتي بفضلها حدث الاستقلال:

وإن سلوي عن جميل ساعة من الدهر ماحانت ولا حان حينها³¹.

فتوظيف مرتاض لهذا البيت له دلالات عميقة منها علاقة الشعب الجزائري بوطنه ومحاولاته المستمرة في الدفاع عنه من أجل تحريره، أما الدلالة الأخرى التي يحملها، وهي المأساة التي يعاني منها الشعب الجزائري من جراء الاستعمار الفرنسي وابتعادهم عن وطنهم.

وفي السياق نفسه ورد بيت شعري للمتنبى يقول فيه:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم³².

حيث جاء هذا البيت على لسان المهرج الطريف وهو يخاطب يعقوب الباريسي " إنك لو تعرف من العربية وآدابها ما نعرف، لكنك خاطبت صاحبك هذا، وأنت تدافع عن الكيان الغريب الذي كدت أن تجعله حاكما وطنيا عدلا:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم³³.

وتتوالى في النص الروائي الاستحضارات الشعرية القديمة وذلك مثل ماجاء على لسان المهرج الطريف وهو يخاطب الأم زينب مبديا إعجابه بها بعد أن كان قد سخر منها فخاطبها ببيتين من أبيات المتنبى:

ولو كان النساء كمن عرفنا لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال³⁴.

إذ يدل هذا البيت على دلالات عميقة، وهي أنه بالرغم من عدم رتبة الشكل الذي كانت عليه الأم زينب وذلك عمدا لكي لا تستثير أحدا من المستعمرين، ومثلما كانت جداتنا تفعله حيث تدهن وجهها بالفحم لكي لا تبدوا جميلة- وهي ترمز للمرأة الجزائرية- إلا أن فحولة المرأة الجزائرية ويطولتها تجاوزت الشكل الخارجي، فأحيانا تكون أخير وأفضل من الرجال، فلو كانت النساء في الكمال والفحولة كهذه لفضلن على الرجال.

ويستمر الروائي في توظيف أبيات من الشعر العربي القديم ويتجلى ذلك في قوله " فقد كان المهرج الظريف في تلك الليلة مبتسما خفيفا ومسرورا سعيدا... سارع المهرج الظريف إلى النار فأججها تأجيجا وكان الفتية، أثناء ذلك يسمعون وهو يترنم بالبيت الشعري العربي القديم، وكأنه ينشده متغنيا متغردا: فمن يأتنا يلمم بنا في ديارنا يجد حطبا جزلا، ونارا تأججا³⁵.

فهذا البيت يعبر عن مدى سعادة المهرج الظريف بمجيء الشيخ الجليل إلى مجلسهم لكي يحكي لهم عن الثورة التحريرية وبطولات أبطال المحروسة المحمية.

وفي السياق نفسه وردت أبيات شعرية للشافعي وهي هي لسان الشيخ الجليل وهو يخاطب الفتية وينتقدهم، متهما إياهم بالكسل و التهاون والسكوت عن الفساد، ونقد الزمان واتهامه، و لهذا جاءت الأبيات تحمل دلالة نقد الواقع، وما فيه من تكاسل وتباطؤ عن الحق وإرجاع العيب كله للزمن:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ونهبو ذا الزمان جرم ولو نطق الزمان، لنا هجانا

فدنيانا التصنع والتراخي ونحن نخادع من يرانا³⁶.

فاستحضر الشعر العربي القديم أسهم في إثراء الرواية، وذلك من خلال استحضار دلالات جديدة، كما أن لجوء الروائي للاستعانة بالشعر، كان بهدف تصوير أحاسيس شخصياته، فلربما عجز على نقلها والتعبير عنها بواسطة النثر ، فإذا كان الشعر وسيلة تعبيرية لوصف التجربة وتصوير مختلف المواقف " فالشعر في استعانته بالموسيقى الكلامية إنما يستعين بأقوى الطرق الإيحائية؛ لأن الموسيقى طريق السمو بالأرواح والتعبير عما يعجز التعبير عنه"³⁷

يبدو أن الروائي في بحثه عن هويته و سيادته رسم لنا حدود هذه الرواية بالتلاحم والتفاعل مع الشعر وتوظيفه، وهذا ما أسهم في شعرية النص الروائي وزيادة ثراء النص الدلالي.

المطلب الثالث: توظيف الشعر الحديث

لم يكثر الروائي من استحضار الشعر الحديث، وإنما اكتفى ببعض أبيات الشاعر " محمد العيد آل خليفة":

ببائنة صوت البشائر لعلها فأطرب أوراسا بها، والشلعلعا³⁸.

فالروائي عبد المالك مرتاض نجد أنه قد وظف بيتا شعريا لمحمد العيد آل خليفة وذلك في سياق حديثة عن قرب قيام الثورة التحريرية الكبرى، فالشاعر هنا قد تنبأ بالثورة لذكره جبل الشلعلعا وجبل الأوراس في شعره، على أساس أنها ستؤجج للثورة التحريرية.

وفي موضع آخر استحضر الشاعر أبياتا أخرى للشاعر محمد العيد آل خليفة:

السموات والأرأ ضي جميعا نفيها

كم تساءلت سالكا أنها ما حوينا

لم يجبني سوى الصدى أين ليلاي، أينها؟³⁹.

خلقت هذه الأبيات تأسيساً علائقياً حيث يتضافر الشعري بمكوناته ودلالاته مع التاريخي، حيث عكست هذه القصيدة حالة الفقدان والقهر التي يعيشها الشعب الجزائري. لقد كان النص الروائي حافلاً بالشعر سواء بلغته الشعرية أو بتوظيف واقتباس النصوص الشعرية، إذ أدى إلى تنوعه وغناه، محققاً للنص شعريته وكثافته الترميزية .

الخاتمة:

عالجت هذه الورقة البحثية موضوع شعرية التفاعل النصي بين الشعر والرواية الجزائرية المعاصرة رواية "الخلاص" لعبد المالك مرتاض، حيث استندت الرواية على فن الشعر، مستثمرة إياه في متونها السردية، ماجعلها تخرج من إطارها الضيق إلى إطار أوسع تتلاقح فيه الخطابات والتفاعل معها، وهذا ما يولد شعرية النص الروائي.

1. بلغت الرواية الجزائرية المعاصرة قمة التنوع والغنى وذلك من خلال الحضور القوي لفن الشعر، حيث اغترفت من ينابيعه محققة للنص شعريته وكثافته الترميزية وهو ما أضفى انزياحاً فنياً أدى إلى تكثيف الدلالة.

2. إن رواية الخلاص لعبد المالك مرتاض انفلتت من كل القيود الكتابية التقليدية ، كما استطاعت أن تتفقت من قبضة السرد الكلاسيكي لتستقر على شكل فني منفرد له خصوصية مرتاضية جزائرية.

3. الرواية جنس أدبي لا يعرف الاستقرار يبحث دائماً عن الأساليب وفتيات كتابية جديدة ؛ ذلك لمرونتها وانفتاحها على بقية الأجناس الأدبية بخاصة الشعر الذي تستلهمه وتدخله في نسيجها السردية.

4. استطاعت رواية الخلاص أن تستضيف فن الشعر وتقترب بعض من شمائله وهو ما أسهم في شعرية النص الروائي.

5. إن استحضار الشعر العربي القديم في رواية الخلاص لعبد المالك مرتاض، أسهم في إثراء الرواية، وذلك من خلال استحضار دلالات جديدة، كما أن لجوء الروائي للاستعانة بالشعر، كان بهدف تصوير أحاسيس شخصياته، فلارتما عجز على نقلها والتعبير عنها بواسطة النثر.
6. إن المقاطع الشعرية التي وظفها الروائي رسمت للموقف والحدث الروائي والممثل في قيام الثورة التحريرية الكبرى ضد المستعمر الفرنسي حيث كانت محركاً أساسياً دفع بوتيرة تسلسل الأحداث وتناميها .

الهوامش:

- ¹ناظم حسن ، مفاهيم الشعرية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1994م، ص: 16 .
- ²بن مبروك خولة، الشعرية بين تعدد المصطلح واضطراب المفهوم، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، قسم الأدب واللغة العربية ، كلية الآداب واللغات ، جامعة بسكرة الجزائر ، 2013م، ص: 364.
- ³عبد الله محمد الغدامي، الخطيئة والتكفير(من البنيوية إلى التشريرية، قراءة نقدية لنموذج معاصر)، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، مصر، 1998 م، ص: 21-22.
- ⁴ نهلة فيصل الأحمر، التفاعل النصي، التناسية، (النظرية والمنهج)، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، 2010م، ص: 19.
- ⁵ المرجع نفسه، ص: 249.
- ⁶جوليا كريستيفا، علم النص ،ترجمة: فريد زاهي، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ص: 21.
- ⁷حبرار جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة:عبد الرحمان أيوب، دط ،مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية أفاق عربية، بغداد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ، دت، ص: 90 .
- ⁸سعيد يقطين، افتتاح النص الروائي، النص والسياق، ط2، المركز الثقافي العربي للنشر، المغرب، دت، ص: 91 .
- ⁹ نهلة فيصل الأحمر، التفاعل النصي (التناسية، النظرية والمنهج)، مرجع سابق، ص: 125.
- ¹⁰ عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م، ص: 11.
- ¹¹المرجع نفسه، ص: 31 .
- ¹²علي نجيب ، جماليات الرواية، نقلا عن: أمنة يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط1، دار الحوار للنشر، سوريا، 1987م، ص: 21.
- ¹³ نهلة فيصل الأحمر، التفاعل النصي، التناسية النظرية والمنهج، مرجع سابق، ص: 108 .
- ¹⁴ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، ترجمة:جمال شحيد، دط، معهد الانماء العربي، بيروت، لبنان، 1982 م ، ص: 19.
- ¹⁵تريفيتان تودوروف، المبدأ الحوار، دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة: فخري صالح، دط، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1992م، ص: 113 .
- ¹⁶مرسلي دليلة، دراسات لسانية حول التراث والفلكلور الشعبي في الوطن العربي، تحقيق:سليم قسطون، ط1، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1988م، ص: 100.
- ¹⁷سليمان نبيل، فنتة السرد والنقد، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، 1994 م ، ص: 100، 101.
- ¹⁸بوعزة محمد، التشكيل اللغوي في الرواية، علامات في الند، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ج33، مجلد9، ، 1999م، ص: 83 .
- ¹⁹إبراهيم سعدي، دراسات ومقالات في الرواية، دط، منشورات السهل، الجزائر، 2009م ، ص: 112.
- ²⁰شعبان عبد الحكيم محمد، الرواية العربية الجديدة(دراسات في آليات السرد والقراءة النصية)، ط1، الوراق، الأردن، 2014 م ، ص: 41.
- ²¹سعيد سلام، التناص التراثي (الرواية الجزائرية أنموذجا)، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010 م ، ص: 113.
- ²²إبراهيم أحمد ملحم، في تشكيل الخطاب الروائي (سميحة خريس: الرؤية والفن)، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010 م، ص: 109.

- ²³ صلاح صالح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، دط، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003م، ص: 224.
- ²⁴ ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، ط1، دائرة الفكر، القاهرة، مصر، 1987م، ص: 83 .
- ²⁵ سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي (النص والساق)، ط2، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2001م، ص: 107.
- ²⁶ عبد المالك مرتاض، الخلاص (رواية في عشق الوطن وتجليات اللغة)، ط1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2010م، ص: 43.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص: 63.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص: 68.
- ²⁹ المصدر نفسه، ص: 69.
- ³⁰ عبد المالك مرتاض، الخلاص (رواية في عشق الوطن وتجليات اللغة)، مصدر سابق، ص: 109.
- ³¹ المصدر نفسه، ص: 114 .
- ³² المصدر نفسه، ص: 118.
- ³³ عبد المالك مرتاض، الخلاص (رواية في عشق الوطن وتجليات اللغة)، مصدر سابق، ص: 118 .
- ³⁴ المصدر نفسه، ص: 204.
- ³⁵ المصدر نفسه، ص: 205.
- ³⁶ عبد المالك مرتاض، الخلاص (رواية في عشق الوطن وتجليات اللغة)، مصدر سابق، ص: 223.
- ³⁷ محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي، ط1، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1998م، ص: 360 .
- ³⁸ عبد المالك مرتاض، الخلاص (رواية في عشق الوطن وتجليات اللغة)، مصدر سابق، ص: 28.
- ³⁹ المصدر نفسه، ص: 28.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب

1. إبراهيم أحمد ملحم، في تشكيل الخطاب الروائي (سميحة خريس: الرؤية والفن)، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010م.
2. إبراهيم سعدي، دراسات ومقالات في الرواية، دط، منشورات السهل، الجزائر، 2009م.
3. ترفيتان تودوروف، المبدأ الحوارية، دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة: فخري صالح، دط، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1992م.
4. جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة: فريد زاهي، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1997م.
5. جبرار جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة: عبد الرحمان أيوب، دط، مشروع النشر المشترك، دار الشؤون الثقافية أفاق عربية، بغداد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، دت.

6. سعيد سلام، التناص التراثي (الرواية الجزائرية أنموذجاً)، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010 م.
7. سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي (النص والساق)، ط2، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2001م.
8. سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، ط2، المركز الثقافي العربي للنشر، المغرب، دت.
9. سليمان نبيل، فتنة السرد والنقد، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، 1994 م.
10. شعبان عبد الحكيم محمد، الرواية العربية الجديدة (دراسات في آليات السرد والقراءة النصية)، ط1، الوراق، الأردن، 2014م.
11. صلاح صالح، سرديات الرواية العربية المعاصرة، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003م.
12. عبد الله محمد الغدامي، الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريرية، قراءة نقدية لنموذج معاصر)، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، مصر، 1998 م.
13. عبد المالك مرتاض، الخلاص (رواية في عشق الوطن وتجليات اللغة)، ط1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2010م.
14. عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م.
15. علي نجيب، جماليات الرواية، نقلا عن: أمنة يوسف، تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط1، دار الحوار للنشر، سوريا، 1987م.
16. مرسل دليلة، دراسات لسانية حول التراث والفلكلور الشعبي في الوطن العربي، تحقيق: سليم قسطون، ط1، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1988م.
17. ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، ط1، دائرة الفكر، القاهرة، مصر، 1987م.
18. ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، ترجمة: جمال شحيد، ط1، معهد الانماء العربي، بيروت، لبنان، 1982 م.

19. ناظم حسن ، مفاهيم الشعرية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1994م.

20. نهلة فيصل الأحمر، التفاعل النصي، التناصية، (النظرية والمنهج)، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، 2010م.

ثانياً: المقالات

1. بن مبروك خولة، الشعرية بين تعدد المصطلح واضطراب المفهوم، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، قسم الأدب واللغة العربية ، كلية الآداب واللغات ، جامعة بسكرة الجزائر ، 2013م.

2. بوعزة محمد، التشكيل اللغوي في الرواية، علامات في الند، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ج33، مجلد9، ، 1999م.